

تعليق على بحث دور الاستعمار في التخلف للدكتور عطوي

ان البحث الذي قدمه الدكتور عبد الجبار عطوي عن دور الاستعمار في التخلف الحضاري الذي تعاني منه الامة العربية ، بحث كامل وموجز ومحكم ، ولا اظن ان هناك مجالاً لاي اضافة هامة ، الا اذا شئنا ان ندخل في ذكر تفاصيل اعتقد اننا نعرفها جميعاً عن آثار الاستعمار في شتى مجالات حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

علما انه قد يمكن اضافة بعض النقاط التي ترتبط بما نراه من زوال الاستعمار بوجه عام من جهة ، او بما نتوقعه من استمرار علاقة القوي بالضعيف في تشكيل النمو الحضاري من جهة اخرى .

فنحن حين ننظر الى الكتابات العربية خلال عشرات السنين الماضية بوجه عام ، نجد انها لم تقصر في ذكر مناعب الاستعمار ، في الدور الذي قام به عبر اشكاله المختلفة . ولكنني اخشى دائماً من ان الانصراف الى تحليل هذه الاسباب الخارجية كان كبيراً للرجة ربما ادت الى تقصير الفكر العربي في النظر الى الداخل او في تحليل اسباب التخلف الخاصة بنا ، والتي سهلت للاستعمار دوره . ومن علامات النضج اننا نرى تحولا في هذا المجال ، واننا بدأنا نحلل اوضاعنا المتعلقة بنا ، وهذه الندوة دليل على ذلك .

لقد كان سهلاً على كثيرين من المفكرين العرب في مرحلة معينة ، ان يسقطوا كل اسباب الازمة العربية على العالم الخارجي . ربما لان هذا كان يريحهم من عناء المواجهة الحقيقية للاسباب الكامنة في مجتمعنا العربي ذاته ، ولانه ايضا لا يضعهم في موضع التصادم الحاد مع كثير من القيم والمعتقدات والرواسب السائدة في مجتمعاتنا . كذلك كان هذا التركيز على الخارج ، في ظروف كثيرة ، مريحا للسلطة في معظم البلاد العربية ، لانه يخفف من مسؤولياتها التي عليها ان تتحملها او يبرر للناس عجزها وجهودها .

لقد تفكك المجتمع العربي وبدأت سلسلة اضمحلاله من داخله قبل ان تهجم عليه الغزوات المختلفة التي اكملت اخضاعه ، وان دراسة اسباب انحلال الحضارات المزدهرة لهي دراسة مثيرة وهامة وصعبة لتلك المظاهر التي تستعصي احيانا على الفهم . ولا اظن ان القول بأن تمزق الدولة الاسلامية الى دويلات متصارعة يكفي لحل المشكلة . ان هذا طبعاً صحيح ولكنه مظهر من مظاهر اضمحلال . ولكن قيم الحرية

والعمل والبحث كانت قد انزوت لتحل محلها قيم الاستبداد والظلم والافتقار ابواب الاجتهاد . وتكوين التفسير الديني لرغبات الحكام كان قد صار ظاهرة عامة ، وحدث هذا قبل غزو الاستعمار لنا مادياً بوقت طويل .

اقول هذا لانني اعتقد ان من المفاتيح التي لا بد منها من اجل التقدم العربي ان نعيد دراسة وكتابة التاريخ العربي والاسلامي ، دراسة نقدية حديثة . ولا اقصد بهذا مجرد ذلك العدد من المؤلفات العاهية لبعض اساتذتنا . ولكنني اقصد ان هذا التاريخ الذي يبلغ اكثر من ١٤٠٠ سنة ، يكاد يكون كله في الذهن العربي العام تاريخاً مقدساً ، لا يعرف الناس منه الا صفحاته المضيئة ، ولا يدركون بالتالي الامراض التي دبت فيه وادت الى اضمحلاله . واظن ان التدريس العام في مدارسنا ينهج المنهج نفسه .

ان الاستعمار او رغبة دولة ما في السيطرة على غيرها بأي صورة قديم قدم التاريخ . ولكن الفوز لا ينجح الا ضد مجتمع ضعيف بالفعل ، او اقل على اي حال .

فالعرب لم يكونوا في احسن حال حين داهمتهم الغزوات ، بل العكس . فلماذا وما الذي جرى ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة مهم وضروري في هذه المرحلة ، لانه لا يمكن المضي في طريق التخضر دون الانطلاق من فهم هذه الخلفية ودون ان يتقبل مجتمعنا هذا .

وهذا مهم ايضا ونحن نتحدث في مواجهة العصر الحديث عن الاصاله وعن التراث ، وفي اعتقادي ان من اهم اسباب تخلفنا اننا حتى الان لم نحل تلك المعادلة بين الاصاله والتجديد رغم ان البحث بدأ فيها على ايدي مفكرينا منذ قرن على الاقل . وتلك قضية لا شكستناقش في مواضع اخرى من هذه الندوة . ولكن تراثنا فيه تراث مراحل النهضة والتنوير وفيه تراث مراحل اضمحلال . وهذا لا بد من فرزه ، وهو ما لا يحدث ، انما نرى ان كل كتاب عمره كذا مئة سنة ينشر ويوزع لانه تراث ، بصرف النظر عن البيئه والظروف التي انتجت .

والاستعمار نفسه في العصر الحديث صحيح انه جاء منتظياً قوته الفاشية وتفوقه العسكري والمادي والفكري ، ولكنه استخدم في حكم بلادنا كل عوامل التخلف الى اقصى الحدود . ولست اقصد هنا فقط

العضوي بالاستعمار العالمي ، فرروا ان الحل هو الثورة الاجتماعية الشاملة ، بل والثورة العالية .
وليس معنى ذلك ان اسرائيل - كظاهرة استعمارية - خلقت هذه التيارات المصارعة ، فهذه اعتبارات كانت طبعا موجودة من قبل . ولكنها جاءت لدعم الرأي المسبق ، او تزيده تطرفا فيه ، وانحصارا في داخله .

وقد جاء هذا في مرحلة من نمو العالم العربي ، تفتتح فيه الابواب امام كل الاعتبارات الفكرية والنماذج الحضارية بشتى انواعها دون ان يواجه حتى الان درجة كافية من التماسك الاجتماعي والفكري الحضاري العميق ، ليس حول فكرة واحدة او نموذج واحد ، ولكن حول عدد معقول من القيم الحديثة المسلم بها لدى عدد من ابناء الامة ، الامر الذي يعتبر شرطا ضروريا لكي يكون لها نسيج قوي قادر على مواجهة التعبير والانطلاق دون اضطراب شامل او نكسات عنيفة .
المنظرة الثالثة والاخيرة هي في الواقع طرح قضية وليست الاجابة عنها . قضية الاستعمار بعد ان رحل ..

فبعد زوال سيادة الاستعمار عسكريا وحتى اقتصاديا ، تبقى من بعد هذه القرون جذور فكرية واجتماعية . جذور في انماط السلوك واساليب العمل . تبقى له الثقافة التي صنعها خلال استئثاره بالعالم والفكر في حياة العالم ...

فالدول التي حكمت العالم خلال القرنين الاخيرين ، انتجت فلسفة او فلسفات معينة . واعادت كتابة تاريخ العالم من وجهات نظر معينة واوجدت معاني معينة للكلمات : ما هو النجاح ؟ ما هي القضية ؟ ما هو اليمين واليسار ؟ ما هي الثقافة ؟ ما هي غاية المجتمع ؟ ماذا يريد الانسان ؟ بل ما هو مضمون التقدم والتخلف ؟

وكل البلاد الخارجة عن الاستعمار ، والتي تواجه ازمته التطور الحضاري ، يصعب عليها التخلص من امرين :

الاول هو التأثير من هذه العناصر الموجودة بالفعل ، بقوة تأثيرها الطاغية التي تجعلها نموذجا متقدما ، والثاني ان العالم فوق ذلك في مرحلة حركة لا استقرار ، وان ما استقر طويلا في المجتمعات المتقدمة التي تستعمرنا ، تتعرض اليوم لهزات عميقة .

وانا هنا لا ادعو الى رفض ما وصلت اليه تلك الدول ، او الى قبوله ، او الى انتقاء معين منه . فيخيل لي وانا اكتب هذه السطور ان هذا قد يكون له مجالات اخرى في ابحاث الندوة ولكن فقط الفت النظر ، والوضوع هو دور الاستعمار في ازمة التخلف الحضاري ، الى هذا الدور الذي يظل مستهرا بالطبيعة بعد زوال العلاقة الاستعمارية في صورتها التقليدية سياسيا او اقتصاديا .

كيف نستطيع ان ننظر الى هذا ايضا نظرة نقدية ، متخلصة من بصمات الاستعمار العميقة وغير منفصلة في نفس الوقت عن التجربة الانسانية الشاملة ؟

انني من المؤمنين بفكرة وحدة الحضارة ، من خلال النوع الذي تفرسه الطبيعة والذي ساهم ويساهم في اثناء هذه الحضارة في معانيها العامة المتقاربة . واذا كانت هناك حضارة حديثة فنحن العرب شركاء فيها لاننا حملنا مشاعلها يوما واقمنا بعض اسسها .

وسائل الاتصال الحديثة تضاعف من تعميم قيم حضارية معينة في شتى انحاء العالم . ولكن المشكلة ان هذا يتم بسرعة شديدة في وقت نحن فيه الضعفاء وغيرنا هو الافدر على التأثير والغاء . الامر الذي يهدد بتحقيق كلمة ابن خلدون من « ان المغلوب مولع ابدا بتقليد الغالب » او بحديث الفيلسوف الالماني شبنجلر عن ظاهرة « التشكل الكاذب » التي تقع فيها المجتمعات النامية حين تبدأ من قوالب موجودة من قبل ، قبل ان تتجاوزها الى اخذ اشكالها الحقيقية .

ولا شك ان هذه الندوة عن ازمة التطور الحضاري سوف تدقق النظر حول هذه القضايا تحت العناوين الاخرى لسائر موضوعات الندوة .

تلك العوامل المعروفة من الامية والفقر وغيرها ، ولكن ايضا كل النزعات القبائلية والعشائرية الراسخة ، والخلافات المذهبية الموروثة ، بل كان يدكي هذه الخلافات ، التي هي في النهاية معارك فات او انها وانقضت بواعثها منذ قرون ، بدليل انه حتى بعد رحيل الاستعمار ما زالت هذه النزعات تلعب دورها في حياة كثير من المجتمعات العربية بدرجات مختلفة .

المنظرة الثانية التي اود الاشارة اليها هي انه يجب ان نخص الظاهرة الاسرائيلية الاستعمارية بآثار خاصة بها تميزها عن الدور الذي لعبه الاستعمار في اشكاله السابقة ...

لقد عرف العرب منذ تفتحت جفونهم ببطء على حقائق العالم الجديد ، قبل قرنين من الزمان ، عدة صعوبات . وعرفوا صدمة الحملة الفرنسية على مصر التي حملت لهم اول صورة من العالم الحديث ، ومبادئ الحضارة الغربية ، ولكنها حملت معها اول تحريض للقوى الوطنية المصرية ، وبالتالي العربية ضد حكم المماليك والأتراك . وعرفوا صدمة تحالف دول اوربا ضد محمد علي ، حين حاول من القاعدة التي انشأها في مصر تحدي الامبراطورية التركية من الداخل ، وفصل جزء كبير من المنطقة العربية عنها . حتى فرنسا التي شجعت وسارته طويلا ، انضمت في الساعة الحاسمة الى انجلترا وروسيا وغيرها الى جانب الخلافة التركية المتداعية ...

وعرفوا صدمة الاحتلال الانجليزي لمصر سنة 1882 الذي لم يتأخر كثيرا عن فتح قناة السويس والذي جاء في لحظة وصلت فيها الوطنية المصرية الى قمة احدى محاولاتها لطرد الحكم التركي والحصول على حقوق دستورية بالمعنى الحديث للشعب المصري ، وكان الهدف تصفية اخر آثار اول محاولة لاقامة دولة حديثة في الشرق . اذ كان على رأس برنامج الاحتلال القضاء على الجيش المصري ، وذك مصانع الاسلحة والاجهاز على كل المصنوعات المصرية التي كانت تعد شيئا بمستوى ذلك الوقت ، وانهاء كل النضال الدستوري الشعبي الذي كان متقدما على بلاد اوربية كثيرة في ذلك الوقت .

وعرفوا صدمة الحرب العالمية الاولى ، التي وعدهم القرب في بدايتها بالاستقلال وبعوهم في نهايتها لانجلترا وفرنسا والحركة الصهيونية العالمية ، وعرف سائر المشرق وقتها ما عرفه المصريون من قبل من انهم امام استعمار اكثر عنصرية ، ينتقد حجة الاستعمار التركي الشرعية في الخلافة ، ولكنه اكثر كفاءة واكثر عملا بالتالي بادخال اصلاحات تجعل ادارته لمستعمراته اكثر فاعلية .

لذلك كان رد الفعل العربي بوجه عام ازاء الاحتلال الاوروبي مزدوجا ، فهم يناضلون ضده للحصول على الاستقلال ، ولكنهم كانوا في نفس الوقت يغلدون عادات هؤلاء الاوربيين في بلادهم ويحاولون اقتباسها ، ويصارعون مستعمرهم بحجج مستمدة من نظمهم وقيمهم التي يمارسونها في بلادهم .

اما صدمة اسرائيل فهي من نوع اخر ، لست محتاجا الى شرحه ، فهي تقوم على تشريد شعب من الشعوب العربية واخلاء ارضها والاستيطان الدائم وخلق قومية جديدة مكانهم .

ويهمني هنا من هذه القضية ان اسرائيل جاءت في مرحلة زادت من تشتت العرب الفكري . فهي بكيانها القريب المعقد الذي يحمل ظلالات شتى تبدأ من الاسطورة الدينية الى استخدام اعقد وسائل العلم الحديث ادت الى ردود فعل متضاربة في العقل العربي العام .

فالذين رأوا من اسرائيل جانبها القائم على الاسطورة الدينية ، وجدوا ان الدفاع ضدها يكون في الرجوع الى الماضي واعتبروا ان تسلي الافكار الجديدة الى المجتمع كان سبب الهزائم .

والذين رأوا في اسرائيل نظامها القائم على الحريات الليبرالية وتعدد الاحزاب قالوا : ان الحل في الاخذ بالليبرالية الاوروبية .

والذين رأوا ان الاساس في الظاهرة الاسرائيلية هو ارتباطها